وفي كل ما ذكرنا في هذا الفصل كلامٌ طويل اجتزأنا منهُ بهذا القدر بياناً لما انتهى اليهِ مبلغ العلم في هذه الايام وايذاناً بما وصل اليهِ اولئك القوم من الامعان في البحث والمثابرة على استطلاع حقائق الكون وخباياهُ مما اتسعت بهِ حدود المعارف البشرية الى ما تجاوز مرمى الحواسّ وجاء من ورآء المدارك العقلية . وانما بلغوا ذلك بفضل ما أُوتوا من الثبات والصبر على مزاولة المطالب وتنبُّه اولي الامر منهم وارباب الثروة لتأييد دعائم العلم وتعزيز القائمين بامرهِ مما نهض بهم الى اسمى ذُرى الفخر وجعلهم في مقدمة الامم في هذا العصر فلمثل هذا فليعمل العاملون

اهل التقادير واصحاب السعي والتدبير

لحضرة الكاتب الفاضل قسطاكي افندي الحمصي في حلب

(تابع لما قبل)

وهآنذا اقصّ عليك من أنبآء بعض المتقدمين والمتأخرين ما يكشف الغطآء عن خطآء اهل السعود والنحوس وفساد مزاعمهم فعرّج معي على مصر والصين والهند وبابل ونينوى وآثينا ورومة وغيرها من البلاد والممالك نسأل رسومها الدارسة واطلالها البالية ونستنطقها عن احوال فراعنتها وملوكها الذين نصبوا اعلام مجدهم تناطح الجوزآء وخلفوا اهرامهم آيةً لمن يأتي بعدهم من الملوك والامرآء واختطّوا الامصار ووطدوا الاسوار وشقّوا الاموج وصنعوا الابراج وشيّدوا الهياكل الفخيمة وقاموا بالفتوحات العظيمة وتركوا من بدائع صنائعهم عجائب ومن آيات علومهم غرائب وأسّسوا اوّل عمران رواهُ تاريخ البشر وشهدت بصدقهِ الآثار الباقية ولسان حالهم ينشد

ان آثارنا تدلّ علينا فانظروا بعدنا الى الآثارِ

أكان ما اسّسوهُ وشيّدوهُ وبنوهُ ومهّدوهُ واحكموهُ وقيّدوهُ حظًّا وسعدًا وتوفيقًا ام سعيًا وجهدًا وتحقيقًا . ورُفعت اهرام مصر بتوفيق خينوس وبخت خورا وسعد منقيرا فراعنتها ام باقدامهم وسعيهم واستبدادهم وبغيهم . أُبنيت ممفيس المدينة العظيمة مهد العلوم والمعارف والصنائع الاولّية بتوفيق مينس ام بسعيهِ واجتهادهِ . وهل قام سور الصين المنيع وفُتحت طرقاتها وخُرقت جبالها بتوفيق تسين شي هو أنك تي ملكها العظيم ام بحزمهِ وسعيهِ ووفرة اعتنآئهِ وأُحرقت كتبها القديمة بأحكام النحس ام بأوامر هذا السلطان المستبدّ . وتأسست بابل العظمى وسورها الرفيع بتوفيق نمرود ورُفعت جنّاتها المعلّقة بسعد سميراميس ام بهمتها الشُمّ وسعيها الوافر . وشيّدت نينوى البديعة بتوفيق آثور وقامت ابراجها الالف والخمسمائة بسعد نينوس ام باستعبادهِ الالوف من الاسرى وتسخيرهم ببنيانها وهندمتها وتأنيقها . وعُمّر البارتينون — هيكل مينرفا — بآثينا على ذلك النمط البديع والاسلوب العجيب بتوفيق بريكليس وسعد ايكتينوس وكاليكات وفيدياس ام بسعيهم واجتهادهم ودأبهم . وبنيت الهياكل الفخيمة في رومة ونُصبت التماثيل والدُمى البديعة النقش بتوفيق سيرويليوس وفيلويوس وقيصر وسيلا وفالون وغيرهم من قياصرتها ورؤسآئها ام بسعيهم وحروبهم وغنائمهم

بل انظر الى تاريخ نابوليون بونابرت الاول وما أُوتيهُ من الفتوح في حروبهِ العديدة وارتقآئهِ سدّة الملك ومغالبة اهلهِ بعد ان دانت لهم السُلطة قرونًا ولا نسب يؤيّد بهِ مدّعاهُ ولا حجّة يحتجّ بها فملك البلاد وسنّ الشرائع ونظم الملك وشيد المباني والمصانع والقصور وعبّأ الجيوش التي عنت لبأسها الارض ونصب اعلام مجدهِ في اكثر الممالك الكبيرة وتوّج الملوك الى آخر ما اتاهُ في

حروبهِ وما جرى لهُ من الوقائع مما يكاد يُحسَب في عداد الخوارق أكان ذلك بقضاء الحظ وحكم البخت ام بأصالة الرأي ورجاحة العقل وثقوب الذهن ومضاء العزم وتوقد الفؤاد وسعة الاطلاع والجدّ والدأب وطول الاشتغال والنصَب. على أن مَن يجيل نظرهُ في قِصَص هؤلاء الافراد واخبارهم يقف من امرهم في موقف الحيرة حتى يكاد لا يصدّق ما يقرأهُ من اعمالهم ولعلّهُ يحسب ان امرأً تُقضى حياتهُ بين امتشاق السيوف وتعبئة الزحوف واقتحام الصفوف وتدريب الجنود وترتيب المكاتب وتشييد المدارس وتوزيع الضرائب وسن طرق التعليم وجمع اموال المملكة بترتيب وحفظ خزينتها عامرة وخلع الملوك من عروشهم ونصب الامرآء واحباط مساعي المفسدين واخماد الثورات واشتراع الشرائع ونشر العدل والامان وتمهيد سُبل العمران ورفع شأن العلوم والفنون والصنائع والقائمين بها ومكافأة اهل الاستحقاق وما يتخلل ذلك من عشق وزواج وساعات لهو وقراءة الى غير ذلك من تدبير حقير الاشياء وجليلها لهو من رابع المستحيلات او يعدّ ذلك من باب المعجزات. وليس الامر في شيء من ذلك ولكن هي النفوس الكبيرة تجري في ميادين الاقدام والهمم العالية تتسابق في حلبة السعي لنيل المرام وانّى للتوفيق وقد حالف بزعمهم غيًّا كليلاً ان يأتي ببعض ما ذُكر عن الفرد من هؤلاء الناس ومن اين للجاهل ان يقوم بحمل جزء من هذه الاعمال واقلها يقضي بالسعي المتواصل واجهاد الفكرة واذكاء الخاطر وحبس الهمة على المطالب وادمان السهر في اعمال الروية مع استحكام عرى الحزم وسبق الخبرة الطويلة والوقوف على حصة كبيرة من المعارف البشرية وهذه لا تكون الاّ في ارباب النفوس الزكيّة وذوي العناصر الطيّبة. وانّ امرأً تُقضى ايامهُ بين الكأس والطاس وتمرّ ساعاتهُ بين اغتنام الشهوات ومنادمة

الجلاس لبعيدٌ عن المعالي ولو ارتقى ارفع تخت محرومٌ من امانيهِ ولو عاقد كل موهوم من حظٍ وبخت وان حصل لهُ ذلك فانما يكون استملاؤهُ اتفاقاً لا توفيقاً كأن يكون من طريق الارث او غيرهِ من المصادفات النادرة الحدوث. وقد شبّهوا السعد بعفريت احمر يمدّ ساعدهُ الطويل فيتناول الرجل ويرفعهُ الى اعلى قامتهِ الشامخة لينظرهُ ويتفرّس فيهِ فان رآهُ اهلاً للمنزلة التي اعدّها لهُ احلّهُ بها والاّ رمى بهِ من اعلى قامتهِ الهائلة الى الحضيض فيسقط مهشّماً محطماً

ولا يخفى ما في هذا التشبيه من الحكمة الرائعة فما العفريت الاّ الاتفاق يعرض للرجل الهمام الحازم فيغتنمهُ ويجد في السعي والعمل ورآء المطالب فيفوز باسنى الرغائب وبعكسهِ الرجل الجاهل المتقاعد يحسب الاتفاق غادةً قد عشقت معانيهُ وتيمها حبّهُ وملك فؤادها جمالهُ وباتت اسيرة محاسنهِ وهو لا يقابل حبّها الاّ بالجفاء والدلال والاعراض والملال حتى اذا ما اضاع الفرصة وتنبّه من غفلتهِ وصحا من سكرتهِ طلبها فرأى انها قد نأت عنهُ ونفرت منهُ واذاقتهُ من صدها الحامض والمرّ وهجرتهُ وايّ هجر وعلم انها خريدةٌ سهرها الدرر الغوال وعلّق بغير بذل المهج لا يُنال وبهذا القدر كفاية لمن كان لهُ قلبٌ او القى السمع وهو شهيد

وما أرى اصحاب السعي والعمل الاّ مصيبين في رأيهم وفيما قدم من براهينهم الساطعة وحججهم الدامغة عبرةٌ لأولي الالباب ولو شئت ان اسرد عليك لتعزيز هذا الرأي الرجيح قصص الاغنياء والعظماء واهل الحرف الذين جمعوا الاموال الطائلة وبلغوا اعلى مراتب المجد وغلبوا النحس المزعوم والحرمان الموهوم بمضاء عزائمهم ووفرة سعيهم وكدهم لاتيت من ذلك بما تضيق بهِ صفحات الاسفار . وانتَ اذا تأملت بعين الناقد الخبير وجدت ان البلاد لم تشقَ

الاّ بشقاوة سكانها وجهلهم وكسلهم ولم تسعد الاّ بسعيهم واقدامهم فما السعد روح من الارواح ولا النحس شبح من الاشباح ولا الحجارة او الخشب من الاجسام القابلة لهذا الحلول او التي تتفعل بأوهام ضعاف العزائم والعقول فانك لو ألقيت قطعة من الحجر الصلد في قصر اسعد الملوك وتركتها الف عام بل الف دهر وقرأت عليها وعزّمت وشعوذت واستنجدت الحظ واستخلفت الجد واستدعيت التوفيق والسعد لما غيّرتَ من حالها شيئاً ولما خرجت عن عداد الحجارة والصخور المهملة المالئة قسماً كبيرًا من هذه الكرة ولكن لو طرحتها بين يدي حكّاكٍ او نحّاتٍ او رسّام او قشّاش او نقّار من مهرة هذه الصنائع لصاغها اناءً يحار في حسن صنعتهِ ذو الذوق السليم او تمثالاً يخرجهُ على ابدع مثال واجمل قوام مما قد تعبّد لمثلهِ السلف وتغالى بقيمتهِ الخلف وتزينت بهِ قصور الملوك والامرآء وتنافس فيهِ اهل الصنائع والعلمآء

ولم نُطِل بضرب هذه الامثال الاّ لنصيب من نفس القارئ المعتقد بهذه الاوهام حظّاً يدفع منها الاغترار بهذه الترّهات ويبعدها عن مطارح التمسّك بهذه الخرافات ولترسخ في نفسهِ ملكة السعي والعمل وتنهض بهِ من وهدة الخمول الذي تولاّه متّكلاً على همتهِ واقدامهِ ومثابرتهِ في سبيل المطالب والمآرب وادراك سنيّ الرغائب ولله در القائل

على المرء ان يسعى لما فيهِ نفعهُ وليس عليهِ ان يساعدهُ الدهر

وقد تعترض علينا فيما نحن فيهِ بوجود كثيرين من اهل الصنائع الماهرين والعلمآء البارعين وذوي الرأي والاقدام غير بالغين مبلغ سواهم او مَن هم دونهم من نعيم الدنيا وغبطتها وسعة العيش بل ربما يُرى بعضهم في ضنك وضيق والجواب عن ذلك هين فلا تعجلنَّ علينا بالملام ولا تحسبنَّ انك قد غلبتنا بحجتك

هذه بل تبحر في كنه الحقيقة وتبصر في استطلاع الامور وابحث عن العلل واسبابها وقس الاشياء بنظائرها واشباهها فتبدو لك امور لم تكن في حسبانك وتنجلي لك اشياء غابت عنك لانك لم تستبطن احوال مَن بحثت عنهُ كلها ولا دققت في الاستقصاء ولا عمقت في الفحص والاستقراء بل اخذت الاشياء بظواهرها وانما الحقيقة بنت البحث وكم من ظاهرٍ يخالف الباطن وعيبٍ يسترهُ برقع صفيق فانك هدانا الله واياك اذا تفحصت عن السر في نجاح الطبيب المشعوذ المخرق والاديب المتحذلق المتشدق والتاجر الذي حسبتهُ عاجزًا بليدًا والمزارع الذي عددتهُ موفقًا سعيدًا وجدتهُ قائمًا بامرٍ واحد هو سعيهم ورآء عملهم وثباتهم على حِرَفهم واتكالهم على كدهم وجهدهم وما احسن قول الشاعر

وانما رجل الدنيا وواحدها مَن لا يعوّل في الدنيا على رجلِ

وأضف الى ذلك ظروف الزمان والمكان التي صادفتهم لأوّل امرهم وكانت علّة سعادتهم لاسباب عديدة. منها ان نجاح الانسان في اوّل عمل يعملهُ هو أسٌّ متين لكل ما يزاولهُ في مدة حياتهِ فهو يمكّن من نفسهِ الاعتقاد بكفاءتهِ فيما ينهض لهُ من الاعمال واقتدارهِ على صعاب المهمات وفوزهِ بابعد الغايات قياسًا على ما صادفهُ من النجح في المرّة الاولى ويُرسّخ في نفوس اهلهِ وذويهِ وابناء بلدتهِ ذلك الاعتقاد وهذا مما يزيد في تجرئتهِ وتشجيعهِ حتى انهُ لو اخطأ بعد هذا مرارًا واصاب مرّة لتمحلوا لهُ عند الفشل الاعذار ونسبوا ذلك الى الاقدار وناهيك ما لمعتقد الجمهور من التأثير العظيم في ايّ امرٍ كان وقد يكون على ضلال ولكن نزع ذلك من نفوس معتقديهِ من اصعب التكاليف. وقد يهون اقناع العاقل وردّهُ عن رأيٍ باطل مهما كان عنيدًا ولكن دون اقناع الجهّال وردّهم عن ذلك خرط القتاد في الليلة الظلماء. وغير خافٍ انهم الفئة

الكبرى والقسم الاعظم من المجتمع الانساني في كل قطر واذا قُدّر اقناعهم فلا يتيسّر ذلك الا على طول الايام والتفنن في اساليب الارشاد والهداية لتفتح لهم وجوه الغواية حتى ليحتاج الناصح الى مجاراتهم في اول الامر على ضلالهم ثم ايهامهم انهُ قد اهتدى الى فساد ذلك الرأي بانوارهم وعرف خطأهُ من صوابهم حتى يتمسّك الجهال بالرأي القويم زاعمين انهُ رأيهم . ولكن قد تمرّ الايام بل الاعوام ولا يفوز الهادي بهذا المرام واذا رُزق هذه السعادة بعد طول معاناة النَصَب وكثرة المشاق فلا يبلغها حتى يكون صاحبنا المزعوم موفّقاً قد بلغ من الغنى ما تمنى او من الشهرة ما اراد

ستأتي البقية

التنويم

يُستعمَل التنويم الآن علاجاً لكثيرٍ من الامراض ولا سيما العصبية منها وقد لغط الناس كثيرًا في امرهِ فاثبت بعضهم لهُ من الخوارق ما لا يقبلهُ العقل السليم من مثل معرفة الغيب وكشف الاسرار وبيان المخبإ وانكر آخرون فعلهُ وذهب قومٌ الى ان ما يحدث عنهُ ليس الاّ شعوذةً يُقصَد بها التضليل والتمويه . وقد تصدّى للبحث في حقيقتهِ فريقٌ من العلماء المحققين والاطباء البارعين فاطالوا النظر في تحقيق مسائلهِ واكثروا من مزاولة التجارب فيهِ على طرق مختلفة تحروا بها اثبات الصحيح ونفي الفاسد من مزاعم منتحلي هذه الصناعة حتى تبيَّن وجه الصواب فسلّم اكثرهم بصحة ما يحدثهُ من الاثر النافع في صناعة الشفاء وهم الآن يعتمدون عليهِ في علاج الامراض العصبية مما لم تنجع فيهِ حيل الاطباء

ولم يقتصر البحث عن التنويم على بيان منافعهِ الشفائية ولكنهُ كان